



لا تأتي سياسة الدول الكبرى وليدة اللحظة وهي إن كانت تتأثر بطبيعة الحال بالظروف الموضوعية الإقليمية والدولية إلا أن جذورها راسخة في ثقافة الدولة وطبيعة النظام السياسي القائم فيها.

هناك الكثير من الجهود الإقليمية والدولية التي تركّز الآن على روسيا في محاولة جديدة لدفعها للتغيير موقفها كما يقولون من الأزمة في سوريا ولكي تفسح المجال لعملية انتقالية سلسة، وإلا فإنّ الأزمة قد تستمر وتقضى معها على ما تبقى من الدولة السورية والشعب السوري.

يعتقد هؤلاء أنّ هناك إمكانية للتغيير الموقف الروسي، ويرى بعض المسؤولين الدوليين بأنّ التواصل مع روسيا بحد ذاته أمر إيجابي وأنّ هناك تقدّم في هذا المجال لكنه بطيء جداً، ومع ذلك فهذا الأمر لا يعدّ مشكلة طالما أن روسيا قبلت من حيث المبدأ السير في هذا الاتجاه، كما يقولون.

للأسف، الكلام في واد والعمل في واد آخر، والحديث عن إمكانية تحول في الموقف الروسي ضعيف جداً. روسيا منذ البداية لم تغير موقفها، صحيح أنها حاولت أن توهمنا بأنّها مستعدّة لمساومة ما عندما شددت أكثر من مرّة على أنها غير متمسكة بالأسد، لكنّ ذلك لا يعني حقيقة تغيير موقفها الأساس من الأزمة السورية والمتمثل في دعم الديكتاتور حتى الرمق الأخير.

هل يعدّ هذا الموقف استثناءً في السياسة الخارجية الروسية؟ بالطبع لا. هذا الموقف هو الموقف الأصيل للروس والمترکر في كل النزاعات الإقليمية التي يكون لروسيا يد فيها، سواء في يوغوسلافيا السابقة أو العراق أو أفغانستان أو غيرها من البلدان.

المشتراك في كل هذه النماذج من الحالات يكمن في أنّ الموقف الأمريكي هو العامل الحاسم. الروس لا يغيرون موقفهم إلا عندما يتغيّر الواقع تماماً، وهم لا يعانون لمصلحة مع أي من هذه الأنظمة وإنما للظهور بموقف المتحدّي لأمريكا والغرب، وهو الموقف الذين يمنحهم "برستيجاً" ويضخّم من "حجمهم الحقيقي" على الساحة الدولية.

من السذاجة والحمق والبلاهة بمكان الاعتقاد أنّ الأسد بقي إلى اليوم في موقعه بفضل الموقف الروسي والإيراني فقط. نعم، لهاتين الدولتين دور مؤثر وفعال في إمداده بشريان الحياة، لكن الموقف الحقيقي الذي ساعد على بقاء الأسد هو الموقف

الأمريكي وليس موقف أية جهة أخرى.

الأزمة السورية كانت ولا زلت بالنسبة إلى إدارة أوباما بمثابة الجزرة التي تريد أن تظهر من خلالها للآخرين الذين تسعى إلى التقرب منهم أن أمريكا أفلعت عن الأسلوب القديم وأنها لا تريد المشاكل مع روسيا أو إيران، بل الحوار والتفاهم والاعتراف بمحالهما في المنطقة والافتتاح على التعاون معهما بدلاً من المواجهة. المشكلة كانت في كيفية تمرير هذا الأمر على حلفاء الولايات المتحدة في المنطقة دون أن يظهر توافق الإدارة الأمريكية مع روسيا وإيران.

لسوء الحظ، فإن الشعب السوري هو الذي يدفع ثمناً ألاعيب كل هذه الدول، أما المثير للاشمئزاز في الموضوع أن واشنطن لم تكن بحاجة حقيقة إلى الاستخدام الحقيقي للقوة لاستبدال نظام الأسد، كان يكفي أن يكون هناك تهديد حقيقي ذو مصداقية باستخدام القوة (دون استخدامها حقيقة) حتى نحصل على النتيجة المرجوة كما حصل في عهد بوش الابن عندما اغتال ممثلاً "محور الممانعة" رفيق الحريري، وكما حصل عندما شعر الأسد بخطورة التحرك الأمريكي بعد استخدامه للكيماوي.

كان هناك خيارات عديدة أيضاً لا تلزم الأميركيان بالتحرك ومنها خيار دعم ما سماهم أوباما (ال فلاحين والمزارعين والأطباء) الذين يسيطرون اليوم على مناطق شاسعة من سورية دون منه من أحد. كان هناك خيار منع الأسد من تلقي الدعم الإقليمي والدولي، كان هناك خيار رفع الفيتو عن دور الدول الإقليمية في دعم المعارضة بدلاً من تهديدها والضغط عليها.

كل الدرائع "الأوبامية" التي تم تقديمها منذ بداية الثورة السورية وحتى اليوم لتبرير الموقف الأميركي في سورية هي ذرائع واهية تدين إدارة أوباما.

لazلت أذكر جيداً عند استقبال الوفود الأمريكية في بداية الثورة السورية، كانت الدرائع حاضرة وجاهزة:

1) من غير الممكن تمرير الأسلحة إلى المعارضة لأنّه قد ينتهي بها الأمر في نهاية المطاف إلى الأيدي الخطأ، وقد تصل بعدها إلى الراديكاليين أو الإرهابيين. لكن وللمفارقة كانت واشنطن تدق السلاح على حكومة المالكي وانتهى الأمر بأن تصل الأسلحة إلى الراديكاليين والإرهابيين دون المرور بالمعارضين وأن تشكّل الأسلحة الأمريكية الجزء الأكبر من تنظيم "داعش" الذي فتك بالمعارضين الحقيقيين قبل غيرهم فيما بعد!

2) إدارة أوباما لا تريد فرض حظر جوي لأنّها غير مستعدة للالتزام العسكري والمالي المطلوب لتحقيق هذا الأمر نظراً للموارد البشرية والمالية الكبيرة التي يتطلبها. لكن وللمفارقة فإن إدارة أوباما اضطررت فيما بعد لتدخل في حرب مع "داعش" تكلفها حوالي 9 مليون دولار يومياً، ومن المتوقع أن تزيد إلى 14 مليون دولار يومياً مع نهاية هذا العام، ناهيك عن اضطرارها لإعادة جنودها سواء عبر عمليات خاصة أو عبر قصف جوي أو عبر عمليات تدريب عسكرية.

لم يكن مطلوباً من إدارة أوباما أن تفعل الشيء الكثير، لكنّ الأخيرة فضلت استخدام الملف السوري كطعم ل القيام بتسویات ثنائية مع روسيا وإيران. لقد سُمح للأسد بالبقاء بل وتم تشجيعه على استخدام القنابل والبراميل المتفجرة والكيماوي والاستعانة بالميليشيات الشيعية والحرس الثوري الإيراني كي لا يتم عرقلة الانفتاح الأميركي على إيران، ولكي تفهم إيران بأنه لا مانع لدى أمريكا من تحقيق ما تريده وإن كان يتطلب هذا فناء الشعب السوري.

حتى عندما حاولت إدارة أوباما أن تظهر للعالم بأنّها تريد أن تفعل شيئاً، لم تكن حقيقة كذلك. كل ما كان يهمها استخدام الملف السوري مرة أخرى لخدمة أغراض التسویات والتفاهم مع الروس كما حصل في صفقة السلاح الكيماوي. لا شك أنّ هذه الصفقة أظهرت أنّ بإمكان روسيا وأمريكا التعاون وهذا ما كان يريده الجانب الأميركي بالضبط. في المقابل ما كان

بهم الروس هو التضحية بهذا السلاح في مقابل استمرار الأسد في منصبه وبالتالي استمرار اللعبة. لقد أفادت الصفة الطرفين الروسي والأمريكي ولكنها جاءت مرة أخرى على حساب الشعب السوري، ولا يزال الأسد يقصف الناس بالأسلحة الكيماوية رغم قرار مجلس الأمن 2118 في الوقت الذي كانت واشنطن فيه تتحجّج سابقاً بعدم مقدرتها على فعل شيء بسبب الفيتو الروسي.

الأمر نفسه يتكرر الآن. في نهاية المطاف لن يكون الأسد على ما يبدو موجوداً لا في السلطة ولا في سوريا، لكن هناك من يريد لازلام الأسد ولعملائه ولأسياده أن يستمروا في التواجد في المؤسسات الرسمية تحت حجة حماية ما تبقى من المؤسسات، فيما يريد آخرون أن يستنسخوا نموذج تشارك السلطة والمؤسسات والمناطق والأحياء والدولة برمته كما فعلوا في لبنان والعراق.

الولايات المتحدة ليس لديها أية مشكلة في قبول هذه المطالب الروسية والإيرانية، لكن على الجانب الآخر أن يتتبّع تماماً لما حصل ويحصل في هذين البلدين، وهو أمر كافٍ لفرض هذه الاقتراحات حقيقة، ناهيك عن عدم الرغبة في تكرار خطأ النموذج اليمني في تغيير الرؤوس فقط والبقاء على جسد النظام وجماعته وتحصينه.

إذا كان ولا بد من الإبقاء على ما تبقى مما يسمى "مؤسسات سوريا" – لا أعتقد بوجودها –، فيجب التأكد من أن يتم تصفيتها بالكامل من أي وجود لنظام الأسد أو حلفائه، هذا هو الضامن الوحيد لاستعادة سوريا كدولة وشعب.

السورية نت

المصادر: